الفصل الأول

علم الأخلاق — ماهيته — موضوعه — مسائله — الأعمال الارادية وغير الارادية — التبعة الأخلاقية

ما هية علم الأخلاق ومسائله — كانا يحكم على بعض الأعمال بأنها خير، وعلى بعضها بأنها شرّ، فنقول : العدل خير، والظلم شر، وأداء الدَّين الى صاحبه خير، و إنكار المدين ما عليه شرّ، وهذا الحكم متداول بين الناس رفيعهم ووضيعهم، عالمهم وجاهلهم، على لسان الفيلسوف فى بحثه عن أعمال الإنسان ، وعلى ألسنة الصناع فى صناعتهم ، بل والأطفال فى ألعابهم ، فما معنى الخير والشرّ ؟ و بأىّ مقياس أقيس العمل فأحكم عليه بأنه خير أو شرّ ؟

كذلك نرى الناس يعملون أعمالا لغاية يطلبون تحقيقها ، والناس يختلفون اختلافا كبيرا فى هذه الغايات التى يَنْشُدونها ، فبعضهم يطلب المال ، وآخر يطلب الجاه ، وآخر يطلب العلم وفريق يزهد فى كل ذلك و يطلب رضا الله بالعمل الصالح ،

ويأمل النعيم المقيم فى الدار الآخرة، ولكن كثير من هذه الغايات التى يطلبونها ليست هى الغاية الأخيرة، فلو سألت انسانا لِمَ يعمل هذا العمل؟ لقال: انه يعمله طلبا للمال، ولو سألته لم يطلب المال لقال: انه يطلبه ليبنى قصرا ويكون أسرة، ولو سايرته فى آماله وسألته لم يريد القصر والأسرة؟ لقال: إنه يرغب أن يكون فى الحياة سعيدا — اذن — المال والقصر والأسرة ليست غايات أخيرة، انما الغاية الأخيرة له أن يكون سعيدا — فهل للناس جميعا غاية أخيرة واحدة يطلبونها أو بعبارة أخرى ينبغى أن يطلبوها؟ وما هى؟

عن كل هذا يبحث علم الأخلاق.

فهو علم يوضح معنى الخير والشر، ويبين ما ينبغى أن تكون عليه معاملة الناس بعضهم بعضا، ويشرح الغاية التى ينبغى أن يقصدها الناس فى أعمالهم، وينير السبيل لعمل ما ينبغى.

موضوعه — يؤخذ مما ذكرنا أن علم الأخلاق يبحث عن أعمال الناس فيحكم عليها بالخير أو الشر، ولكن ليست كل الأعمال صالحة لأن يُحكَم عليها هذا الحكم، فكثير من الأعمال لا يصح أن يقال: إنها خير ولا شر، ولبيان ذلك نقول:

تصدر من الانسان أعمال غير ارادية كالتنفس ونبض القلب ورمش العين عند الانتقال فجأة من ظلمة الى نور، فهذه الأعمال تسمى (أعمالا غير ارادية)، وهى ليست من موضوع علم الأخلاق، فلا نحكم عليها بخير ولا شرّ، ولا يقال : إن الانسان خيّر لأن قلبه ينبض نبضا حسنا، أو معدته تهضم هضما جيدا، كما لا يقال : إنه شرّير لأن قلبه لا ينبض كما ينبغى ، ومعدته لا تهضم هضما حسنا ، لأنه لا دخل لارادة الانسان فى ذلك، وكل إنسان يريد أن ينبض قلبه وتهضم معدته على أحسن وجه ولكن ارادته لا أثر لها فى ذلك .

وتصدر من الإنسان أعمال بعد التفكير فى نتائجها وارادة عملها، كمن يرى أن بناء مستشفى فى بلده ينفع قومه ويخفف مصائبهم فيتبرّع بالمال لبنائه وادارته ، وكمن يُقْدِم على قتل عدوّه فيفكر فى وسائل ذلك ثم ينفذ ما عزم عليه، فهذه الأعمال تسمى «أعمالا إرادية» وهى موضوع علم الأخلاق، فيحكم عليها بأنها خير أو شرّ، وعلى فاعلها بأنه خيّر أو شرّير .

وهناك نوع من الأعمال بين الاثنين ، فله شَبَهٌ بالأعمال الارادية وله شبه بالأعمال غير الارادية ، فهل هو من موضوع علم الأخلاق ؟ كما فى الأمثلة الآتية :

(١) من الناس من يأتى أعمالا وهو نائم ، فلو أن أحدهم أشعل نارا بمنزله وهو فى هـذه الحالة ، أو أطفأ نارا كادت تحرق المنزل ، فهل هذا عمل إرادىّ يحكم عليه بأنه خير فى الحالة الأولى وشرّ فى الثانية ؟

(٢) قد يصاب إنسان بداء النسيان فيترك عملا كان يجب عليه عمله فى وقته ، أو يخلف موعدا وعده .

(٣) قد يستغرق الفكر عمل ، كمن يشتغل بحل مسألة هندسية ، أو يقرأ فى رواية لذيذة ، فيلهيه ذلك عن درس واجب أو عمل مفروض .

هذه الأعمال كلها — بالتأمل فيها — نرى أنها أعمال غير ارادية ، فليس النائم فى المثال الأول قد تعمد إحراق المنزل وقدّر نتائجه ، لذلك لا يُحْكَم على عمله هذا بأنه خير أو شرّ ، لأنه لا ارادة له ، ولا يُسأل عنه ، وإنما يسأل عنه ويحاسب عليه اذا كان يعلم أنه مصاب بهذا المرض وأنه يأتى أعمالا خطرة وهو نائم ، ثم لم يحتط وقت صحوه وانتباهه لما قد يحصل عند نومه ، بأن يحول بين نفسه والنار وأدواتها ، فهو مسئول خلقيا عن عدم الاحتياط وقت الانتباه ، لأنه شىء ارادىّ ، كان فى مُكْنته أن يحتاط له ثم

لم يفعل، وكذلك الشأن فى الأمثلة التى ذكرناها ونحوها، فلو أنك نمت وتركت النار مشتعلة فى موقد ثم طارت شرارة أحرقت المنزل لا يسمع لقولك: «إن هذه ليست خطيئتى ولست قادرا أن أمنع النار أن ترمى بالشرر وأنا نائم» اذ يقال لك: «إنك عالم أنك ستنام، وقد أردت النوم، وعالم أن النار مشتعلة، وكان فى إمكانك أن تحتاط وقت انتباهك باطفائها، وعالم أنك ستكون فى حالة عدم شعور، فكان ينبغى أن تستعد وقت شعورك لما قد يطرأ وقت عدم شعورك، وذلك باطفاء النار، فنحن إنما نحكم عليك بالخطأ والصواب بالنظر الى عدم الاحتياط، وهو شىء ارادى».

ومثل ذلك الإتيان بعمل مع الاعتذار بجهل النتائج التى تصدر عنه — وكمن كان يعلم من نفسه أنه حاد الطبع غضوب، لا يضبط نفسه عند سماع كلمة تؤلمه، فيسب أو يضرب من غير شعور، فلو أنه غشى الجمعيات التى هى مَظِنة لاثارة غضبه وأتى بما يستنكر كان مسئولا عن عمله، — لما ذكرناه — وكذلك الأعمال التى اعتيدت حتى صار صاحبها يأتيها من غير ارادة، فإنه يسأل عنها، لأن الاعتياد نتيجة عمل ارادى متكرر، فلا يعذر طالبٌ بأنه انما يدخن لأن التدخين أصبح عادة متمكنة منه، لأنه — على فرض

تمكنه كما يدعى — إنما انغمس فى هذه العادة بعد أن دخن جملة مرات وهو حرّ مختار مريد حتى صارت عادة، وهكذا .

والخلاصـة : أن موضوع علم الأخلاق هى الأعمـال التى صدرت من العامل عن عمد واختيـار، يعلم صاحبها وقت عملها ماذا يعمـل، وكذلك الأعمال التى صـدرت لا عن إرادة ولكن كان يمكن تجنب وقوعها عند ما كان مريدا مختارا، فهذان النوعان يحكم عليهما بالخير أو الشرّ — وأما ما يصدر لا عن ارادة وشعور، ولا يمكن تجنبه فى حالة الاختيار، فليس من موضوع علم الأخلاق.

التَّبِعَة الأخلاقية (المسئولية الأخلاقية) — مما تقدّم نفهـم أن التبعة لا تكون إلا اذا وجدت الارادة ، فما لا دخل لإرادة الانسان فيه لا يُسأل عنه ، ولا يلام عليه ، ولا يمدح أو يذمّ من أجله ، فلا يمدح الشخص لطوله ، ولا يذمّ لقصره ، من الناحية الأخلاقية ، ولا يقـال : انه خيّر لأنه جميل الوجه ولا شرّير لأنه قبيحه ، لأن هذه الأشياء وأشباهها لاعمل لإرادة الانسان فيها . وليس يلام الانسان على سوء صحته ، ولا يمدح على حسنها إلا بمقدار ماله من أعمال ارادية فى ذلك ، كتسـيره فى حياته على نظام صحىّ أو اهماله ذلك .

كذلك لا يُسأل الانسان عما لم يمنح من ملكات عقلية أو فنية، فالنـاس لم يخلقوا جميعا وعندهم استعداد بقـدر واحد للرياضة أو للفنون الجميلة، فمن لم يخلق رياضيا لا يكون مسئولا عن ضعفه الرياضى، انما يكون مسئولا اذا كان عنده الاستعداد الكافى وكان ينقصه المران والجدّ ثم لم يمرن ولم يجدّ وهكذا .

والطفل الرضيع اذا بكى وأسهر أمه طول الليل لا يسأل عن عمـله لأنه لا ارادة له ، والصيدلىّ اذا أخطأ فأعطى الممرضة دواء غير المكتوب فى تذكرة الطبيب فناولته الممرضـة للمريض وهى جاهلة به فمـات منه كان المسئول هو الصيدلىّ لا الممرضة، لأنها لاإرادة لها فى ذلك، والصيدلىّ هو المسئول لاهماله فى عمله .

فمتى وجدت الارادة وجدت المسئولية، وما لم توجد الارادة فلا مسئولية ، فالأعمال التى ليس فى طاقة الانسان التحرز عنهـا والتى غُلب فيها على نفسه لا يسأل عنها ، كأعمال المجنون والمغمى عليه، وكذلك أعمال المكرَه، فمن أمسك بيد آخر واضطرّه لارتكاب جريمـة ولم يستطع المكرَه بحال أن يقاومه لم يكن مسئولا ، انمـا المسئول من أكرهه على العمل .

وهنا كثيرا ما يعرض هـذا السؤال وهو : هل ارادة الانسان حرّة حتى يكون مسئولا عن عمله؟ هذه المسألة من المسائل المشكلة

التى طال فيها الجدل قديما وحديثا ، فيذهب بعض الباحثين الى ان الانسان مُجْبَر ليس حرّ الارادة : ذلك لأن إرادة الانسان تتأثر بشيئين : الوِراثة والبِيئَة ، فهو يرث من أبويه ميولا خيرة وميولا شرّيرة ، وكذلك تؤثر فيـه البيئة التى حوله من بيت ومدرسـة وأصدقاء وكتب ونحو ذلك ، فمن نشأ من أبوين مجرمين ، و ورث منهـما الميل الى الاجرام ، وشبّ بين مجرمين وسمع أحاديثهم كان مجرما لامحالة ، ولم يكن حرّ الارادة فيما يفعل ، وليس فى استطاعته إلا أن يكون مجرما ، واذا أردت إصلاحه فأصلح البيئة التى يعيش فيها ، وانقله من بيئته السيئة الى بيئة خيرة ، ولكنّ فى هذا الرأى غلوّا ، فإن الارادة — وان كانت تتأثر بالوراثة والبيئـة الى درجة كبيرة — فإنها لا تفقد حرّيتها ، وأوضح دايـل على ذلك ما نشعر به فى أنفسـنا من أننا أحرار فى الاختيار ، وأننا نسـتطيع أن نعمل الشيء وألا نعمله ، فمن كذب شعر من نفسـه بأنه كان يستطيع ألا يكذب ، ومن أجل هذا يندم على كذبته ، ولو كان كذبه محتما عليه ما ندم — ولولا أن ارادة الانسان حرة فى اختيار الخير والشر لما كان هناك معنى للتعاليم الأخلاقية ، ولكان الأمر بفعل الخير والنهى عن الشرّ ضربا من العبث ، ولما كان هناك معنى للثواب والعقاب والمدح والذم .

وهناك نوعان من المسئولية : مسئولية قانونية، ومسئولية أخلاقيـة، فالانسان إذا خالف قانون البـلاد كان مسئولا أمام القضاء ، وعوقب من أجل مخالفته، واذا خالف أوامر الأخلاق كان مسئولا أمام الله وأمام ضميره، والمسئولية الأخلاقية أوسع دائرة من المسئولية القانونية : ذلك لأن القانون لا يأمر ولا ينهى إلا اذا استطاع أن يعاقب من يخالف أمره ونهيه بالعقوبات التى نَص عليها، أما الأخلاق فسلطانها أوسع ،لأن من يتولى لها المثوبة والعقوبة هو الله والضمير، وكلاهما يشرف على الأعمال الظاهرة والباطنة — فالقانون لا يستطيع أن ينهى عن الكذب والحسد لأنه لا يستطيع أن «يسأل» من يرتكبهما ،ولو حاول أن يعاقب الكاذب أو الحاسد لارتكب من إضرار الناس بالوشاية والتجسس أكثر مما يصلح، أما الأخلاق فتنهى عن الكذب والحسد وتنهى عن أكثر من ذلك . فتسأل الانسان عن نياته التى فى أعماق نفسه ولو لم يصدر عنها عمل ، وتكل مكافأته على نياته الحسنة ومعاقبته على نياته السيئة الى الله والى ضميره .